بنية النصوص وفضاؤها المعرفي

في كتابي الصفين الرابع والتاسع الأساسيين

ناهض زقوت

من الصعوبة قراءة نصوص المنهاج قراءة عميقة في صفحات معدودة؛ فالمنهج التعليمي يحتاج إلى قراءات عديدة بهدف إثراء المناقشة في محاولة لتطويره، لينسجم مع تطلعات الطفل/الطالب وطبيعته وخصوصيته، حتى لا يجد نفسه يرتوي من نبع ليس نبعه، ويتعلم منهاجاً لا يتوافق مع ميوله واتجاهاته وحاجاته ولا مع أهداف المجتمع.

وبما أن التربية هي الأساس في تشكيل شخصية الفرد ورقيه وتقدمه، كما تحدد نوع شخصية الفرد قوةً أو ضعفاً، فإذا ما استغلت ووجهت التوجيه السليم نحو تحقيق اكتمال النماء الشامل للشخصية، يمكنها أن تخلق أفراداً لديهم المقدرة على التخطيط في الحاضر والمستقبل.

والسؤال الذي نطرحه:

هل حققت المناهج الفلسطينية رؤيتها التي صاغتها في تمهيد المنهاجين «أن المنهاج يراعى الخصوصية الفلسطينية لتحقيق طموحات الشعب الفلسطيني حتى يأخذ مكانه بين الشعوب»؟

نؤكد بعد قراءة عميقة لبنية النصوص وفضائها المعرفي أن المنهاج ابتعد كثيراً عن تلك الرؤية. ففي قراءة شكلية للمنهاجين، نجد أن الدروس بلغت (31) درساً، منها سبعة دروس تعرج على الواقع الفلسطيني، أو تستمد منه رؤيتها التربوية، وباقي الدروس عامة تحمل مضامين معلوماتية ومعرفية، و تراثية ودينية، ونوادر وطرائف وأمثال، وكذلك وعلى الرغم من وجود أسماء في بداية المنهاجين تدعي تأليفها المنهاج، نلاحظ أن جميع النصوص لم تكن من تأليف أحد منهم، فكل النصوص مستوحاة من مؤلفات لكتاب عرب أو أجانب، باستثناء نصين شعريين لشاعرين فلسطينيين. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن المنهاج يحمل صفة الفلسطينية دون مضمون فلسطيني يعبر عن الواقع والشخصية الفلسطينية. فهو منهاج عام يمكن أن يدرس في أية دولة، أو إلى أي شعب دون أن يؤثر في بناء شخصيته أو يميزه عن الشعوب الأخرى.

إن الكتّاب الفلسطينيين كتبوا الكثير في كل مجالات العلم والثقافة والأدب، فلماذا لا نبرزهم لأطفالنا ونعرف بهم؟ ولماذا وضعت بعض النصوص في زاوية (اقرأ واستمتع)، وكان الأجدر بكثير من دروس كتاب الصف التاسع أن تكون في تلك الزاوية، في حين تكون النصوص التي تعبر عن الشخصية الفلسطينية وواقعها وطموحاتها هي النصوص المركزية، كذلك ما الفائدة لطفل في سن 14 عاماً أن يتعرف على د. التهامي نقرة، وهو لا يعرف د. اسحق موسى الحسيني، أو محمود درويش، أو خليل السكاكيني رائد التربية والتعليم في فلسطين.

لقد ركز منهاج الفصل التاسع على النصوص الدينية والتراثية، ونحن لسنا ضد الثقافة الدينية والتراثية والأخلاقية، فالدين والتراث من مكونات الشخصية العربية بصورة عامة، والتركيز عليهما في المنهاج الفلسطيني لا يمنح الشخصية الفلسطينية موقعاً متميزاً بين الشعوب الأخرى، وتأتي دعوتنا إلى إبراز مكونات الشخصية الفلسطينية وواقعها وطموحاتها ومستقبلها لما تحمله من خصوصية انفردت بها دون الشعوب العربية، وهي محاولات الاحتلال تذويب هذه الشخصية وأحياناً الدفع نحو تهويدها وطمس أبعادها الثقافية والحضارية بحظر تدريس الثقافة الفلسطينية. لهذا، نجد أنه في الجامعات الفلسطينية لا يعرف طلابها عشرة أسماء لكتاب فلسطينيين، والسبب يعود إلى المناهج القديمة (المصرية والأردنية)، حيث كان الطالب يدرس الحضارة الفرعونية والتراث الثقافي المصري ولا يعرف شيئاً عن الثقافة الفلسطينية، وحين يكون هناك منهاج فلسطيني نجد أنه يحمل الصفة دون المضمون، لذا كان موقفنا الداعي إلى تلك الخصوصية في

محاولة لإعادة بناء الشخصية الفلسطينية من جديد بأدواتها ومكوناتها الثقافية والحضارية.

مثلاً، ما قيمة أن يدرس الطفل في منهاج التاسع الأساسي قصيدتي «رثاء الممالك» أو «اليتيمة» وهما من أجمل نصوص التراث العربي (لا خلاف في ذلك) في حين لا يعرف أن أدبنا الفلسطيني فيه الكثير من التشابه – كما يعتقد النقاد – حول رثاء المدن، وما آلت إليه الأوضاع في الأندلس، فلماذا لا يكون هناك نص يروي سيرة المدن أو القرى الفلسطينية التي هُجّر منها أهلها؟ وكذلك هل يمكن أن تنسجم ميول الطفل الفلسطيني مع قصيدة «اليتيمة» وتزيد من وعيه وتفاعله مع واقعه؟ أليس الأجدر بمنهاجنا أن يقدم له قصيدة «الثلاثاء الحمراء» لإبراهيم طوقان مثلاً، ليتعرف على تاريخ شعبه ونضاله.

إن التربية هي البنية الجوهرية في التعليم، ودون تربية لا يكون تعليم، وكذلك لا تعليم دون تربية، لهذا ليس صحيحاً ما ادعاه (المؤلفون؟) أن المناهج تسير وفق الرؤية الحداثية ومسايرة للعصر، فما نجده بقراءة نصوص المنهاجين أنها ما زالت أسيرة النظريات التربوية التقليدية التي تركز كل اهتماماتها على توصيل المعلومات والمعارف بطريق التلقين والحفظ، حتى أصبحت المعلومات هدفاً رئيسياً في حد ذاتها، ولم تعد وسيلة لتحقيق الأهداف المنشودة بالنسبة للفرد والمجتمع، مثلاً في درسي «الطائرة الورقية» و«اللدائن» من كتاب الرابع الأساسي، جاءت بنيتهما في العلم التجريدي لا علم التأمل والتفكير والتجربة، حيث اكتفى المنهاج بتقديم المعلومة دون ربط النص بحالة أكبر للتفكير مثلاً في صنع طائرة حقيقية وليس ورقية، وفي درس «اللدائن» قدم النص معلومات ساذجة وعقيمة، وكان الأفضل أن يركز على كيفية تصنيع المواد البلاستيكية من خلال التجربة، فقد أشار الدرس إلى أن المواد البلاستيكية سهلة التصنيع ولا تحتاج للكثير من الوقت والجهد «واكتفى بهذه العبارة دون ربطها برؤية مستقبلية أو بحالة من التجربة والتفكير لدى الطفل».

والسؤال الذي يطرح نفسه، هل راعت المناهج المرتكزات الأساسية في العملية التربوية بصفة عامة، والقائمة على ثلاثة مرتكزات، هي: العقلية، والوجدانية، والمهارية؟

لماذا لا يكون هناك نص يروي سيرة المدن أو القرى الفلسطينية التي هُجّر منها أهلها؟ وكذلك هل يمكن أن تنسجم ميول الطفل الفلسطيني مع قصيدة «اليتيمة» وتزيد من وعيه وتفاعله مع واقعه؟ أليس الأجدر بمنهاجنا أن يقدم له قصيدة «الثلاثاء الحمراء» لإبراهيم طوقان مثلاً، ليتعرف على تاريخ شعبه ونضاله.

وفي قراءة عميقة لبنية النصوص وفضائها المعرفي في المنهاجين، لم نشعر بتلك المراعاة لقدرات الطفل العقلية النامية وفق نموه الجسمي والعقلي، أو مراعاة لإمكانياته الوجدانية وميوله واتجاهاته، كذلك لم يهتم المنهاج بالكفاءة المهارية لدى الطفل، ومحاولة تنميتها حسب استعداداته الخاصة، فهو منهاج يعتمد – كما ذكرنا – نحو سبعة نصوص تعرج على الواقع الفلسطيني، وبقراءة بعض النصوص مثلاً نلاحظ أن الدرسين الأول والثاني من كتاب الرابع الأساسي يعبران عن البيئة الفلسطينية وما تحتويه من خيرات، ويدعوان إلى الحب والكرم، ولكنهما نصان جامدان لا يدعوان إلى التأمل أو التفكير أو الابتكار، فالطفل هنا يتلقى نصاً ويجيب عن أسئلته دون أن يحرك في ذهنه شيئاً؛ فالمؤلف صاغ نصاً للقراءة وتقديم المعلومة فقط. وأتساءل ما القيمة الثقافية أو التربوية في معرفة الطفل «أننا نأكل أوراق العنب المحشو بالأرز واللحمة، ونستخدمها في صناعة المخللات»، هل مثل هذه المعلومات تبرز الشخصية الفلسطينية وتزيد من وعيها المعرفي والحضاري، وتجعل لها مكاناً بين الأمم والشعوب الأخرى؟

إن المنهاج الفلسطيني بحاجة إلى إعادة النظر حتى يكون منهاجاً فلسطينياً صفة ومضموناً، كما أنه بحاجة إلى تطوير في النصوص والمناقشات حول النصوص، ونجمل في النقاط التالية رؤيتنا النقدية لبنية النصوص في الكتابين، والتي لا بد من تجاوزها للتأسيس لمشروع نهضوي في مجال التربية:

1- عدم ربط النصوص بالحياة، من خلال التركيز على الأمثلة العملية المستمدة من الحياة الواقعية والمعاشة للطفل.

2- غياب أسلوب تنمية المهارات الأدائية، من خلال التركيز على التعلم عبر العمل والممارسة الفعلية للأنشطة، وتشجيع الطفل على ممارسة العمل اليدوي.

3- افتقار المناهج للتوجهات الإيجابية الحديثة في بنائها كمهارات التفكير، والتعليم الذاتي والتعاوني، وحل المشكلات.

ناهض زقوت – كاتب وباحث يقيم في النصيرات/ غزة